الآليات البلاغيّة الحجاجيّة في ضادية ابن زيدون

طالب الدكتوراه: محمد الأمين مصدق
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة بسكرة (الجزائر)

ملخـــص:

نحاول في هذه الدراسة الاستناد إلى المعطيّات التي قدّمها الدّرس الحجاجي بغية الوقوف على حجاجيّة الخطاب الإقناعي في النصّ الشعري عند ابن زيدون الذي يعدّ واحدا من أشهر الشعراء في تاريخ الأندلس؛ بل في تاريخ الأدب العربي. وقد اخترنا قصيدته الضاديّة التي يعاتب فيها ابن عبدوس لتكون أنموذجا تطبيقيّا وازنا نروم من خلاله استشفاف الآليات البلاغية الحجاجيّة التي وظفّها

Abstract:

In this study we try to stand on The foundations that presented by the argumentation lesson in order to identify the persuadable argumentations in the poetic discourses of Ibn Zaydun, who is one of the most famous poets in the history of Andalusia and the arabic history. We have chosen his poem which he warns Ibn Abdus in which, and we made it an applied model seeking through it the discovery of the rhetorical mechanisms used in this unique poem.

مقدّمة:

يدور الدّرس الحجاجي في فلك التقنيات الإجرائية للّغة وآلياتها ومدار الأمر فيه استشفاف القيم والحقائق والأساليب الموظّفة توظيفا حجاجيا التي يُستند إليها من أجل إقناع المتلقّي والتأثير فيه، وفي آرائه، رغبة في تغيير منطلقاته وتوجّهاته. ورغم أنّ الحجاج يعدّ في هذا العصر آلية تندرج تحت عباءة الدّرس التداولي، إلّا أنّ تاريخه ضارب في القدم، منداح في أقدم العصور، وغدا أكثر المفاهيم شيوعا وتداولا وأبرزها عناية بالنصوص المختلفة.

وقد أسهمت المناهج المعاصرة بشكل كبير في انتشار وذيوع صيت الحجاج؛ نظرا للمرونة الكبيرة التي تقلّدت بها فأتاحت له الفرصة لكي يتبوّأ مكانة مرموقة في الدّرس اللّغوي؛ حيث كثر الحديث اليوم عن دوره الناجع في مقاربة مختلف الخطابات العلمية والإنسانية والثقافية؛ ولأنّ الشعر جنس أدبيّ له ميزته الخاصة في مبناه ومعناه، فهو يعدّ حقلا خصبا للمقاربة الحجاجيّة بمختلف أبعادها؛ لما يحفل به غالبا من آليات إقناعيّة بلاغيّة ترضي نهم الباحث في هذا الحقل المعرفي المتميّز.

I-مفهوم الحجاج:

1-مفهوم الحجاج لغة واصطلاحا:

أ- لغة: للحجاج معان مختلفة تدور في مادة (ح ج ج) ؛ لذلك سوف نحاول الوقوف عند الدلالات المستجلاة على ضوء هذه المادة في المعاجم.

جاء في معجم لسان العرب لابن منظور: «يقال حاجَجْتُهُ أحجّه حجاجًا ومحاجّةً حتّى حججته؛ أي غلبته بالحجج التي أدليت بها...والحجّة البرهان... وهو رجل محجاج أي جدل والتحاجّ التخاصم وجمع الحجّة حجج وحجاج وحاجّه محاجَجَةً وحجاجا نازعه الحجّة وحجّج يحجّه حجّا غلبه على حجّته».[1]

فالحجاج أن يغلب الشخص خصمه بالحجّة؛ إذ جاء في معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ما نصّه: «الحجّة وجه الظفر في الخصومة. والفعل حاججته فحججته. واحتججت عليه بكذا. وجمع الحجّ حجج. والحجاج هو المصدر».[2]

وهذا ما يؤكّده الزَّبيدي في معجمه تاج العروس إذ ورد في مادة (ح ج ج): «الحجّ الغلبة بالحجّة يقال: حجّج يحجّه حجّا إذا غلبه على حجّتهن وفي الحديث:"فحجّ آدم موسى؛ أي غلبه بالحجّة وفي حديث معاوية: "فجعلت أحجّ خصمي؛ أي أغلبه بالحجّة"».[3]

وجاء في المعجم الوسيط في مادة (حجّ) ما نصّه: «حجّ فلانا غلبه بالحجّة. يقال حاجّج فحجّه...حاجّه محاجّة وحجاجا: جادله...احتجّ عليه: أقام الحجّة...تحاجّوا: تجادلوا....الحجّة: الدليل والبرهان...المحجاج: الذي يكثر الجدل».[4]

ومن خلال ما سبق يتّضح أن معنى بنية الحجاج مؤدية لمعنى النزاع والخصام بوجود أدلة وبراهين وحجج.

يقابل مصطلح الحجاج في المعجم الغربي لفظة (Argumentation)، وتنبثق في الإنجليزية من هذا الجذر اللّغوي مجموعة من الاشتقاقات التي تدور في الفلك نفسه، مثل: (Argumentative) تعني جدلي وخلافي، (Argue) يجادل يناقش، يتجادل أو يتنازع مع، (Argument) تعني برهان ومناقشة وحجة وجدل، (Argumental)جدلي، (Argumentation) جدل مناقشة ومناظرة.[5]

أما في الإنجليزية الحديثة، فإنّ لفظة (Argument) يشير استخدامها إلى وجود اختلاف بين طرفين ومحاولة إقناع الآخر بوجهة نظرهن وذلك بتقديم الحجج والعلل التي تكون مدعمة أو داحضة لفكرة أو رأي أو سلوك ما.[6]

ب- مفهوم الحجاج اصطلاحا:

يواجه الباحث في الحجاج صعوبات جمّة، لكونه من المفاهيم الملتبسة، نظرا لتعدّد مظاهر الحجاج وتنوّعها، وتعدّد استعمالات الحقل الحجاجي وتباين مرجعياتها: الخطابة، الخطاب، القضاء، الفلسفة، المنطق، التعليم..إضافة إلى خضوع الحجاج في دلالته لما يميّز ألفاظ اللغة الطبيعيّة من ليونة تداولية، وكذلك من تأويلات متجددة، وطواعية استعمالية.[7]

وينبغي أن نشير إلى أنّ مصطلح الحِجاج أعجمي النشأة انتقل إلى اللّغة العربيّة عن طريق الترجمة، ومن الباحثين الذين اهتمّوا بترجمة هذا المصطلح ونقله إلى اللّغة العربيّة عبد الله صولة؛ فقد ترجم المصطلح الفرنسي (Argumentation) بالحجاج،[8] مفاضلا إيّاه على مصطلح الاستدلال مقدّما حججه وبراهينه التي تسوّغ هذا الاختيار.*

وأشار روبير في قاموسه إلى أنّ هذا المصطلح يعني في الفرنسية: القيام باستعمال المصطلح، مجموعة من الحجج التي تستهدف تحقيق نتيجة واحدة، فن استعمال الحجج أو الاعتراض بها في مناقشة معيّنة.[9]

وقد اختلف العلماء في تحديد مفهوم واضح للحجاج، وذلك لتعدد مجالاته؛[10] فهو يتميّز بكثرة الحقول المعرفية التي تتناوله وتخوض في عبابه؛ «إذ نجده متواترا في الأدبيات الفلسفية والمنطقية والبلاغية التقليدية، وفي الدراسات القانونية والمقارنات اللّسانية والنفسانية، والخطابيّة المعاصرة».[11]

ولكن استقراء أغلب التعريفات التي مسّت الحجاج يجعلنا نتبيّن أنّها تصبّ في بوتقة عامة بعدّه علاقة تخاطبيّة أساسًا محوراها المتكلّم والمستمع ومجراها قضيّة ما؛ فالمتكلّم يستند إلى جملة من الحجج والبراهين يعضد بها منطقه، مبتغيا التأثير في المتلقّي وتغيير تصوّراته وإقناعه بصحّة ما يبسطه

داحضا المبسوط إليه، وهذا ما عبّر عنه الباحث طه عبد الرحمن في قوله: «كلّ منطوق به موجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحقّ له الاعتراض عليها».[12]

ويجمع كثير من الباحثين أنّ أوضح تعريف للحجاج هو التعريف الذي قدّمه طه عبد الرحمن في كتابه "في أصول الحوار وتجديد الكلام؛ حيث يقول: «وحدّ الحجاج أنّه فعاليّة تداوليّة جدلية فهو تداولي؛ لأنّ طابعه الفكري مقامي واجتماعي، وهو أيضا جدلي؛ لأنّ هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلاليّة أوسع وأغنى من البنيات الهرمية الضيّقة».[13]

الحجاج والبلاغة:

أولى علماء البلاغة والتخاطب قديما اهتمام كبيرا بالحجاج، فعمدوا إلى تقسيم وجوه الكلام ومناسباته وتناسبه مع متلقّيه أيّا كان، ومهما كانت طبقته «فإذا كان موضوع الكلام على الإفهام...فالواجب أن تقسّم طبقات الكلام إلى طبقات الناس فيخاطب السوقي بخطاب السوقة والبدوي بكلام البدو...ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب».[14]

وهذا ما يؤكّد أنّ علماء البلاغة العربيّة القديمة وظّفوا الحجاج في مؤلفاتهم؛ إذ شكّل بنية أساسية في خطاباتهم؛ نظرا للطابع العقلي الذي شاع في عصرهم، ولعل كثيرين في الوقت الحاضر يظنون أنّ الهدف من البلاغة العربيّة هو الزخرفة والتزويق والتنميق في الكلام، إلا أن المتصفح لأهمّ مصادرها القديمة يكتشف أنّ الهدف منها هو الإقناع، فالغاية من البلاغة العربية هي غاية حجاجية بالدرجة الأولى.[15]

ولكنّ بعض الباحثين مثل الباحث التونسي حمّادي صمّود** –وإن أقرّوا بأنّ البلاغيين القدامى تناولوا مسائل الحجاج في مؤلفاتهم منذ عهد الجاحظ إلى حازم القرطاجنّي- إلّا أنّهم يرون أنّ هذا الاهتمام لا يفي بالغرض ولا يحقق شيئا مما تطمح إليه البلاغة اليوم من الاهتمام بمسائل الحجاج بوصفها البلاغة، وبوصفها الوجه الأهمّ من وجوه إعجاز القرآن الكريم كما ذهب إلى ذلك الباحث عبد الله صولة في كتابه "الحجاج في القرآن الكريم من خلال خصائصه الأسلوبية".[16]

وفي العصر الحديث تأسّست البلاغة الجديدة أو الخطابة الجديدة متدثّرة بجلباب الحجاج منذ سنة 1958 مع رجل القانون التشيكي شاييم بيرلمان (Chaim perelman) واللسانية البلجيكية لوسي أولبريخت تيتيكاه(Lucie Olbrechts -Tyteca)؛ حيث أصدرا كتابهما (مصنّف في الحجاج- البلاغة الجديدة) الذي أعاد بثّ روح الحجاج؛ ولكنه لم ينطلق من العدم؛ بل يعدّ امتدادا للبلاغة الأرسطية رغم الاختلاف معه في كثير من النقاط؛ «فالبلاغة الجديدة تواصل بلاغة أرسطو من حيث توجهها إلى جميع أنواع السامعين. إنّها تحتضن ما يسميه القدامى فنّ الجدل (طريقة الحوار

والنقاش عبر الأسئلة والأجوبة المهتمّة خاصّة بالوسائل الظنيّة، وهو ما حلله أرسطو في كتابه الطوبيقا الذي يعرض التفكير الذي وسمه أرسطو بالجدلي الذي يميّزه عن التفكير التحليلي للمنطق الصوري».[17]

إذن فالإنجاز الأهم الذي قام به بيرلمان –إذا أردنا أن نلخص أعماله في جملة واحدة- إعادته الطابع الفلسفي للخطابة الذي حرمت منه عبر قرون على يد أفلاطون الذي عدّها مجرّد سفسطة، وبمساهمة من أرسطو نفسه الذي أبعدها عن الفلسفة حين فصلها عن الجدل، بهذا الإنجاز أصبح بيرلمان -دون أدنى شك- أكبر مجدّدي الفكر الإنساني المعاصر.[18]

وقد حاول الباحثان إعادة صياغة مفهوم الحجاج على عكس المفهوم الذي كان شائعا عند أرسطو، فبعدما ظلّ حجاجه مرتبطا بالخطابة والجدل وصرامة المنطق، ربط الباحثان الحجاج بالحوار وحريّة العقل، لذلك فالحجاج عندهما معقولية وحرية، وهو حوار من أجل حصول الوفاق بين الأطراف المتحاورة ومن أجل حصول التسليم برأي آخر بعيدا عن الاعتباطية واللامعقول الذين يطبعان الخطابة عادة وبعيدا عن الإلزام والاضطرار الذين يطبعان الجدل، ومعنى ذلك أنّ الحجاج عكس العنف بكل مظاهره.[19]

وعلى هذا يرى هذان الباحثان أن موضوع الحجاج هو درس تقنيات الحجاج التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض لها من أطروحات، أو أن تزيد من درجة ذلك التسليم؛فالخطاب الحجاجي عندهما خطاب واع يرتكز على منتجي الخطاب أساسا، وعلى مدى قدرته على بناء نص حجاجي من خلال توظيفه للآليات الحجاجيّة المختلفة؛ إذ إنّه يحمل الطابع الجدلي الذي يتجسّد في الباث والمتلقي وفق تقنيات معيّنة يحاول بواسطتها كل منهما إقناع الآخر وإفحامه بحجج منطقيّة وعقلانيّة.[20]

II-الآليات البلاغية الحجاجيّة في ضاديّة ابن زيدون:

التعريف بالشاعر والمدوّنة:

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب ابن زيدون المخزومي الأندلسي (ولد سنة 394هـ)، وزير كاتب شاعر من أهل قرطبة، انقطع إلى ابن جهور (ملك من ملوك الطوائف)، فكان السفير بينه وبين الأندلس فأعجبوا به. واتهمه ابن جهور بالميل إلى المعتضد بن عباد فحبسه، فاستعطفه ابن زيدون برسائل عجيبة فلم يعطف؛ فهرب.[21]

ثمّ اتّصل بالمعتضد ابن عبّاد صاحب إشبيلية سنة 441 هـ، فجعله من خواصه يجالسه في خلواته، ويركن إلى إشاراته وكان وزيره المبجّل، وصفوة أصحابه، وذكر له شيئا كثيرا من الرسائل

والنظم. وقد امتاز ابن زيدون بأدب واسع كالبحر، ومتألّق كالبدر، وشعر ساحر البيان، متشعّب الأفنان، وله أيضا حظّ وافر من النثر البديع.[22]

توفيّ ابن زيدون سنة 463 هـ في إشبيلية، ودفن بها تاركا ديوانا شعريّا في الغزل والرثاء والوصف والشكوى والعتاب والمديح والاعتذار.

وقد أحبّ الشاعر ولّادة بنت المستكفي الخليفة الأموي الذي خلعه أهل قرطبة، وكانت ولّادة واحدة من أجمل نساء قرطبة فضلا على أنّها شاعرة مجيدة جعلت مجلسها ملتقى للشعراء وأهل الأدب. وكان الوزير أبو عامر بن عبدوس ينافس ابن زيدون على حبّها وقد اغتنم جفوة حدثت بين الحبيبين ليتودّد إليها؛ مما جعل الغيرة تدبّ في نفس الشاعر.[23] فكتب إليه هذه القصيدة الضاديّة الفحلة التي تتألّق جمالا وإبداعا يعاتبه فيها.

1-آليات حجاجية من علم المعاني:

أ-الإيجاز والإطناب:

إنّ جنوح ابن زيدون إلى أسلوب الإطناب في ضاديته طغى على أسلوب الإيجاز، فمشاعر الغضب الذي اعترته، جعلته يكتبها لصاحبه مشحونة سائلة تنساب بكل معاني الإنذار والعتاب؛ داعيا إياه إلى تذكّر أيام الأنس وحلاوة الصحبة، كما حذّره من مغبّة مواصلة طريق الغيّ في منافسته على حبّ ولادة، غير أنّ هذا لا ينفي أنّه لم يهتم بالإيجاز؛ فقد طعّم قصيدته ببعض النتف التي زوّدها بأطايب صنوف التمثيل والحكم؛ حيث نلفيه يقول:[24]

وَإنّ الكَواكِبَ لا تُسْتَذلّ * وَإنّ المَقَادِيرَ لا تُعْتَرَضْ**

يتميّز اللوغوس الزيدوني بحسن اختيار الكلمات وانتقاء العبارات، ولا شكّ أنّ القوّة اللفظيّة لهذا البيت الشعري الذي يتميّز بكثافته الدلاليّة تمنح سلّمه الحجاجي تجليّا واتّضاحا منذ بدايته فهاهو يضرب على وتر باتوس المتلقي ليستجلبه ويستميله؛ فمن ذا يستذلّ الكواكب ويرميها بالهوان والنقصان، ومن ذا يطاول عنان السماء ليمسك بأمشاجها، وهو الهين الضعيف حسير البال، كليلُ الطرف. إنّ السماء عالية مستعلية رابئة بعنفوانها عن مدارك الاحتقار والاستذلال، ثمّ من ذا يزعم أنّه حائط أصم يحول دون المقادير، وقد جلّاها القدير بحِكم الوضع والتقدير؟

ويقول في موضع آخر:[25]

وَهَل وارِدُ الغَمرِ مِن عِدّهِ* يُقاسُ بِهِ مُستَشِفُّ البَرَضْ**

يواصل الشاعر استدرار باتوس المتلقي بانتقاء لوغوس جذّاب عذب الدلالة، ويتجلّى الإيتوس الزيدوني المغرور الواثق الذي لا يرى سبيلا للمقارنة بينه وبين خصمه في هذا البيت الذي يحضن تحت جوانحه مثلا رائعا يسيل عذوبة وفحولة، فلا خلاف بين اثنين أنّ من حاز لجج الماء

العذب الكثير ليكون له فيه خير مغتسل بارد وشراب لا يقاس بمن يستشف ويُسقى نهلا وعلّا من الماء القليل قطرات لا تروي ظمأه ولا تسدّ جرضَه.

ويقول في موضع آخر:[26]

إذا الشّمْسُ قابلْتَهَا أرمداً* فَحَظٌّ جُفُونِكَ في أنْ تُغَضْ**

هذا البيت استكمال للبيت الذي يسبقه، والملاحظ أن اللوغوس الزيدوني لا يفقد نضارته وقوّته وهو ليس مجرّد زخرفة لفظيّة ترصّع بها القصيدة، بل حججا متدفّقة متسلسلة وازنة؛ فالشمس الساطعة في كبد السماء إن قابلها البصر أصابته الكلالة، وعجز أن يطيل إليها المرء النظر، وما له دون سطوتها إلّا أن يعود بالبصر خاسئا وهو حسير. هذا حال البصر السليم الذي أوتي جوامع الحدج وطول التحديق، فكيف حال العين التي وهّنها الرمد، وأورثها معاني الانتكاس والكمد؟ وحال صاحبها من حالها.

هذه الأبيات الثلاثة جاءت في القصيدة متتابعة متآزفة، وفي كلّ بيت منها مثل مفرد يفري فريا عند أولي الألباب والنهى، فكيف وقد جمعها الشاعر ورصفها لتُجمع تلك الأمثال في معنى يكتمل، فكان لاتصالها مع بعضها بعض نعم المعنى الجامع الذي تتجلى فيه أحلى معاني الشاعرية الفحلة التي يتمتّع بها ابن زيدون، وأرسلها سهما صارداً يبكت ابن عبدوس ويمحق أطماعه وجرأته.

أما الإطناب في الدّرس الحجاجي فليس مجرّد حشو ورصّ؛ بل له دور في توضيح المعنى وتوكيده؛ مما يسهم في تطعيم حجاجيّة اللوغوس، وإذا كان الإيجاز يراعي حالة الكرب والشدّة، فالإطناب يضرب على وتر الراحة والانبساط؛ والشاعر في رحلة استمالة المتلقي يلزمه مراعاة "إيتوس" مخاطبه حسب ما يقتضيه المقام، وقد عرف "هزبر الشرى" أين يجد له المستودع والمستقر في فضاءات هذه القصيدة الفحلة؛ إذ نلفيه يقول:[27]

أرَى كُلّ مُجْرٍ، أبَا عَامِرٍ * يُسَرّ إذا في خَلاءٍ رَكَضْ**
أُعِيذُكَ مِنْ أنْ تَرَى مِنْزَعِي * إذا وَتَرِي، بِالْمَنَايَا، انْقَبضْ**
فإنّي ألِينُ لمنْ لانَ لي * وَأتْرُكُ مَنْ رَامَ قَسْرِي حَرَضْ**
وَكَمْ حَرّكَ العُجْبُ مِنْ حَائِنٍ * فغادرْتُهُ، ما بِهِ مِنْ حبضْ**

في هذه الأبيات يربط الشاعر بين السبب والنتيجة، ويقدّم نصائح لمنافسه في طلب ودّ معشوقته "ولادة"، ويضرب له أمثلة وازنة؛ حيث يقول له إنّ الفرس يحوزه السرور، ويعمره الحبور إذا وجد نفسه في الفلاة وحيدا يركض ويجري ويسابق نفسه؛ ولكنه إذا ابتلي بمنافس شرس انقلب حبوره حسرة وزهوه انتكاسة، وهيهات للفرس الهرم أن يصاول الفرس الفحل.

ويحذّر ابن عبدوس من مغبّة الاستمرار في الغي وطلب ودّ ولادة؛ فذلك مطلب عزيز يفتر فيه الأسد عن نابه، ويعيذه من أن يخرج له سهمه المثكل مضرّجا بالحتف القاضي الذي ليس له عنه من مهرب ولا محيص.

ويشير ابن زيدون إلى دماثة أخلاقه وكرم شيمه، فهو ليّن طيّب موطّأ الكنف لمن يبدي له اللين ويعامله بالحسنى، لكنّه أسد مفترض ووحش كاسر لمن يريد قسره، ويضمر له العداوة ويقف ضدّه في صفوف الكاشحين.

ويذكّره بأنّ الحائن الأحمق إذا ما وجد في نفسه عجبا ظنّ فيها استحقاق ذلك العجب، ثم موجباته، فخاض في مخاضات ليس هو أهلا لها، وكم من رجل أحمق اقترب من حياض ابن زيدون، فكان مصيره الهلكة والتبار.

وفي كلّ هذا حجج مبسوطة إلى ابن عبدوس تحذّره من خطورة ما عزم إليه، وتتوعّده بالمصير السيّء الذي سيحيق به إن لم يكفّ عمّا عزم عليه.

ويقول في موضع آخر:[28]

أَبا عامِرٍ عَثْرَةٌ فَاِستَقِل * لِتُبرِمَ مِن وُدِّنا ما اِنتَقَض**
وَلا تَعتَصِم ضَلَّةً بِالحِجاجِ * وَسَتِّم فَرُبَّ اِحتِجاجٍ دُحِض**
وَإِلّا اِنتَحَتكَ جُيوشُ العِتابِ * مُناجِزَةً في قَضيضٍ وَقَضّ**
وَأَنذِر خَليلَكَ مِن ماهِرٍ * بِطِبِّ الجُنونِ إِذا ما عَرَض**
كَفيلٌ بِبَطِّ خُراجٍ عَسا ** جَريءٌ عَلى شَقِّ عِرقٍ نَبَض**

ينتقل الشاعر من ضرب الأمثلة في الأبيات السابقة إلى الأمر المشوب بالتحذير والوعيد الذي لا شكّ في أنّه أسلوب حجاجي قويّ؛ حيث تشتعل شرارة "الإيتوس" الزيدوني المرعب الذي تدرّج من سلّم تقديم الأمثال من أجل الاتّعاظ بها إلى التحذير والوعيد؛ إذ نادى خصمه، وحرف النداء محذوف تقديره "يا أبا عامر" داعيا إيّاه إلى مراجعة النفس والتوبة عن الذنب، والعودة إلى جادة الصواب، وإبرام ما انتقض من حبل الصّحبة المفتول، وإعادة غرس زهور المودّة في تربة الألفة.

ويحذّره من مغبّة الاعتصام بالحجاج، ومقارعة القول بالقول بهتانا وزورا؛ فابن زيدون هو جُذيْل الحِجاج المُحكَّك وعُذيقه المرجَّب، ولن تقوم لابن عبدوس أمامه قائمة، فكم من حجاج بليغ ومقارعة كلاميّة دحضها وردّها على صاحبها.

فإن لم يرتد أبو عامر عن هجومه الظالم، وعن تعدّيه على الحمى كالحائن، فسوف تنتحيه جيوش العتاب المناجزة، بكبيرها وصغيرها.

كما أنّ ابن زيدون يبيّن أنّه هو البصير بأدوية المرضى الخبير بمعالجة المجانين إذا ما عرضوا له ووقفوا في صفّه.

وابن زيدون هو الجريء الجسور الذي يحسن أن يخرج ما استعصى من الدمل التي يصعب معالجتها واستئصالها، لديه الجرأة الكبيرة، وهو الفارس الشجاع والشاعر الفحل، والطبيب البارع في شقّ العرض النابض وإسالة الدم الذي يسري في العروق.

نجد أنّ الشاعر بدأ هذه الأبيات بالنداء الليّن اللّطيف وتذكير الخصم بأيام الألفة والدعوة، ثم انتقل إلى التحذير من مغبّة الاستمرار بنقض حبل الصداقة، مدعّما ذلك بالحجج والبراهين معاتبا محذّرا.

ب-التقديم والتأخير:

لقد حوت القصيدة الضادية قدرا لا بأس به من التلاعبات التركيبيّة والتغييرات السياقية التي لا مفرّ منها، والتي وإن كان الهدف الأساس من ورائها هو تحقيق الاستواء العروضي؛ من أجل استتباب القوافي والحفاظ على رونق القصيدة وموسيقاها، إلّا أنّ هذا لا ينفي أنّها قد مسحت القصيدة بمسحة بلاغيّة، وصبغتها بصبغة جماليّة شعرية جعلتها تتقاطر في جزالة معانيها وتنساب في سحر دلالاتها.

ولا ريب في أنّ "اللوغوس" الشعري لا غنى له عن المسحة البيانيّة الجمالية، ولا مندوحة له عن الجرس الموسيقي الجذّاب، بل إن الشاعر أقدر على الضرب على وتر "الباتوس" لاستمالة المتلقي، فالشاعر المبدع يحسن أن يرتّب حججه ويسلسلها، ويربط بينها من خلال "الروابط الحجاجية" الفعالة، ولا ريب في أنّ "الأسلوب" الحجاجي يكون أبلغ وأبدع متى ما احتوى تلاعبات تركيبيّة تسهم في شحن نصّه بطاقة حجاجيّة مرصّعة بقيم برهانيّة إقناعيّة.

ومن ذلك قوله:[29]

وَما زِلتَ تَبسُطُ مُستَرسِلاً * إلَيهِ يَدَ البَغيِ لَمّا انقَبَض**

قدّم الشاعر في عجز هذا البيت شبه الجملة "إليه" بتأخير المفعول به "يد البغي"، وهي حجّة مبنية على أساس واقع الصحبة التي انخرمت، فصارت عداء؛ حيث يلوم صاحبه على استمراره في بغيه وظلمه، واستمرائه لبسط يد الجراءة عليه، والتطلّع إلى ما ليس له به، والذي ليس هو له بأهل، مخدوعا بربضة الأسد الذي أضحى هزبرا شرسا أيقظه من استراحته استفزاز الفريسة له.

وقوله:[30]

أُعيذُكَ مِن أَن تَرى مِنزَعي * إذا وَتَري بِالمَنايا انقَبَضْ**

وقد وقع تقديم جملة جواب الشرط وتأخير جملة الشرط والتقدير: "إذا وَتَري بِالمَنايا انقَبَض أُعيذُكَ مِن أَن تَرى مِنزَعي"، ولا ريب في أنّ ظهور "منزع" ابن زيدون هو نتيجة لجراءة ابن عبدوس الذي بسط يد البغي، فكانت سببا لثورة الأسد الرابض.

وقوله:[31]

أَين لي أَلَم أَصطَلِع ناهِضاً * بِأَعباءِ بِرّكَ في مَن نَهَضْ**

في هذا البيت وقع تقديم شبه الجملة "بأعباء برّك" وتأخير جملة "في من نهض". وقد تحقّق بهذا التقديم والتأخير الاستمراريّة الإيقاعيّة طلبا للقافية للضاديّة. ويحاول الشاعر استدرار "باتوس" خصمه الذي أدار له ظهره؛ حيث يقيم عليه الحجّة داعيّا إيّاه عن طريق فعل الأمر "أبن" إلى تذكّر ما كان له عليه من فضل عليه وسابقة يد، فهو من أبرّ النّاس وأوصلهم به، ولم يقطع قط يد الإحسان إليه، فكيف يجازيه هذا الجزاء ويصبح له ندّا.

وقوله:[32]

أَلَم تَنشَ مِن أَدَبي نَفحَةً * حَسِبتَ بِها المِسكَ طيباً يُفَضْ**

أَلَم تَكُ مِن شيمَتي غادِياً * إِلى تُرَعٍ ضاحَكَتها فُرُضْ**

في هذين البيتين وقع تقديم شبه الجملة في ثلاثة مواضع؛ الأول في قوله: ألم تنش من أدبي نفحةً، وقوله: حسبت بها المسك طيبا يفض، وفي قوله: ألم تك من شيمتي غاديا. وقد استند الشاعر إلى أسلوب "الاستفهام" الذي يكشف به الستار عمّا ناله خصمه من حظوة عنده وما كان له من فضل عليه، وكيف قابله بالعداء والحسد، ليستدرجه إلى الاعتراف والإقرار، فتكون ه عليه الحجّة البالغة.

ووقع تقديم شبه الجملة أيضا في قوله:[33]

وَلا عادَني مِن وَفاءٍ سُرورٌ * وَلا نالَني لِجَفاءٍ مَضَضْ**

وفي هذا البيت استخدم الشاعر عامل النفي عن طريق الأداة "لا"؛ حيث ينفي أن يصيبه السرور من وفاء خصمه، وينكر أن يمسّه المضض من جفائه لولا ذلك الاختصاص الذي يحظى به عنده، والذي يشده عقد الصحبة، لكنه يوشك أن ينفرط.

أمّا في قوله:[34]

عَمَدتَ لِشِعري وَلَم تَتَّئِب * تُعارِضُ جَوهَرَهُ بِالعَرَضْ**

فقد وقع تقديم الجملة الفعليّة: "لم تتئب"، وتقدير الكلام: عمدت لشعري تعارض جوهره بالعرض ولم تتئب. ويستخدم الشاعر في هذا البيت عامل النفي "لم"؛ إذ يعمد إلى توجيه المحاجَج إلى

ما يريده حتى يعترف بخطئه، وينكر عليه صنيعه، ويلومه ويعاتبه. ويبيّن له أنّ شعره هو الأصل وما قابله به ليس إلّا عرضا زائلا لا يقوم له.

كما وقع تقديم شبه الجملة "من عهد ولّادة" في قوله:[35]

وَغَرَّكَ مِن عَهدِ وَلّادَةٍ * سَرابٌ تَراءى وَبَرقٌ وَمَضْ**

يستخدم الشاعر هنا الفعل "تراءى" الذي يشير به إلى "يقين" زائف توهّمه ابن عبدوس، فما حسبه بارقة لوصال مزعوم مع ولّادة هو محض سراب زائف. فما كان يراه حجّة له صار حجّة عليه.

ووقع تقديم الحال "ضلّة" وتأخير شبه الجملة "بالحجاج" في قوله:[36]

وَلا تَعتَصِم ضِلَّةً بِالحِجاجِ * وَسَيِّمِ فَرُبَّ إحتِجاجٍ دُحِضْ**

يعود الشاعر إلى استخدام عامل النفي عن طريق الأداة "لا" لدحض الحجاج الذي اعتصم به خصمه؛ حيث إنّه حجاج ضال باهت مؤسّس على وهم عميت به بصيرة ابن عبدوس؛ فانتحته جيوش العتاب، وجيوش الأعداء.

2/آليات حجاجية من علم البيان:

أ-الاستعارة:

للاستعارة وزن بياني لا يُضاهى ولا يُطقّف، وفي الدرّس الحجاجي تكتسي الاستعارة أهميّة كبيرة؛ إذ إنّها تبيّن قدرة المحاجج على تنميق أقواله و زركشتها بالتصويرات البديعة حتى يرسلها حججا دامغة تعضد كفّته، وتقف في جانبه؛ وعن طريقها يستطيع المتكلم أن يقرّب المعنى إلى ذهن المخاطب، ويكسب تعاطفه فيستميله ويقنعه بصدق قضيّته.

ونحن هنا نتحدّث عن الاستعارة "الحجاجيّة" التي ليست مجرّد زينة كلاميّة وتوشية قوليّة؛ بل تحمل في جوهرها طاقة حجاجيّة لتحقيق الفاعليّة الإقناعيّة التي تزداد قوّتها وفقا لحسن توظيفها وفق تراتبيّة السلّم الحجاجي واستنادا إلى السياق الذي ترد فيه.

ونالت القصيدة الضاديّة حظّا وافرا من الاستعارات التي سعى من خلالها إلى تحقيق إقناع المتلقي من خلال القول الفحل والتصوير الجميل، ومن ذلك قوله:[37]

أَثَرتَ هِزَبرَ الشَرى إذ رَبَض * وَنَبَّهتَهُ إذ هَدا فَاغتَمَضْ**

وَما زِلتَ تَبسُطُ مُستَرسِلاً * إلَيهِ يَدَ البَغيَ لَمّا انقَبَضْ**

في البيت الأوّل استعارة تصريحيّة؛ حيث استعار الشاعر لفظ "هزبر الشرى" ليدلّ به على نفسه؛ ولا ريب أنّ في هذا البيت استعارة حجاجيّة قويّة تزيد 'اللوغوس" الزيدوني قوّة وبيانا، وما يزيد هذه الاستعارة قوّة هو أنّها وردت في الشطر الأوّل في البيت الأوّل من القصيدة، وهزبر الشرى

هو أسد الغابة، وهو أشدّ الأسود ضراوة وشجاعة وفتكا. ويبيّن ابن زيدون أنّه أسد هصور وملك عزيز حليم تمّ الاعتداء على حماه، والدنوّ من حياضه، فانتفض من غفوته، وقام بعد أن كان ربض ليستريح.

وفي البيت الثاني استعارة مكنيّة، فقد شبّه "البغي" وهو الظلم والجور والحيف بالإنسان، وحذف لفظ الإنسان وأشار إليه بلازم من لوازمه، وهو "اليد"، وهذه استعارة حجاجيّة أخرى عضد بها الاستعارة السابقة في البيت الأوّل، جاءت لتتمّم الفكرة وتسبغ الحجّة، فكم للظلم من أيدٍ باغية تسطو على ما ليس لها، وتبخس الحقوق، وتجترئ على الحريّات، وتضطهد النفوس، وتغرق في الباطل.

وفي قوله:[38]

أَلَم تَكُ مِن شيمَتي غادِياً* إلى تُرَعٍ ضاحَكَتها فُرَضْ**

نجد في هذا البيت استعارة في قوله: "ضاحكتها فرض"؛ حيث شبّه الشاعر "الفرض" - وهي الثلمة في النهر التي يُستسقى منها- بالكائن العاقل؛ فأشار إليه بلازم من لوازمه وهي "الضحك" على سبيل الاستعارة المكنيّة. ولا ريب في أنّ لهذه الاستعارة جمالية بديعة، وحجاجيّة ثاقبة يهدف من خلالها الشاعر إلى الضرب على وتر باتوس المتلقي؛ حيث يذكّر فيه ابن عبدوس بجموع النعم التي أفاضها عليه، فهو كالترع؛ أي مكان مسيل الماء الذي يتشعّب إلى فرض؛ فمكارمه كثيرة ومتساوقة لا تنقطع عنه كما لا ينقطع ماء الترع الجاري إلى الفرض، كي يُستسقى منها ويُنتفع بها.

و قوله:[39]

أَضاقَت أَساليبُ هَذا القَريضِ * أَم قَد عَفا رَسمُهُ فَإِنقَرَضْ**

شبّه الشاعر القريض –وهو الشِّعر- بالآثار التي تمحي وتزول، وأشار إليها بلازم من لوازمها "عفا رسمه"؛ أي زال أثره واندثر واستحال، وتميّزت هذه الاستعارة بورودها في جملة استفهاميّة يورّط بها ابن زيدون خصمه وينكر عليه الطريق الذي سلكه؛ حيث يستغرب من غفلته وسكرته، وظنّه أنّ أساليب القريض ضاقت واستعصت؛ وما كان للقريض أن يستعضي عن ابن زيدون، وليس له إلّا أن يطاوعه ويسير في صفّه، فهو الشاعر الفحل المفلق الذي يطيّع الأساليب كيفما شاء، ويدبج القوافي في أيّ ثوب شاء.

وقوله:[40]

أَبا عامِرٍ عَثرَةٌ فَاِستَقِل * لِتُبرِمَ مِن وُدِّنا ما اِنتَقَضْ**

في هذا البيت استعارة مكنيّة؛ حيث شبّه الشاعر الودّ بالحبل الذي يُفتل، فحذف "الحبل" وأشار إليه بلازم من لوازمه "الإبرام والنقض". وفي خضمّ تدرّج السلّم الحجاجي الزيدوني في نسق باهر يرصّعه بأسلوب النداء، فيبزغ نوع آخر من الإيتوس الزيدوني الذي مداره الحنين إلى أيامّ الود

والألفة، وكم كان الودّ قويا مفتولا، وكم كان الأنس، وكم كانت المودّة، وكم كانت الجلسات الدافئة، وكم كان الاتّفاق والوفاق؛ ولكن انقلب الحال وأصاب ابن عبدوس البَلبال فعدا طوره، وجاوز قدره، وخاصم وعاند، وأراد بصاحبه المضرّة، فانتقض حبل المودّة. ولكنّ المجال لرأب الصّدع، ورتق الفتق مفتوح. ولابن عبدوس مجال يضيق أو يتسّع إن عاد إلى رشده وترك غيّه، فيصلح الحال ويعود حبل الودّ إلى سائق فتله وقوّته.

و قوله:[41]

وَإِلّا إِنتَحَتكَ جُيوشُ العِتابِ * مُناجِزَةً في قَضيضٍ وَقَضْ**

في هذا البيت استعارة جميلة ماتعة بديعة رائعة تتقاطر رونقا، وتتدثّر بدِثار الحجاج، قوامها: الإخطار والإنذار فقد شبّه الشاعر العتاب بالكائن الحيّ؛ حيث أشار إليه بلازم من لوازمه "الجيوش المناجزة في قضيض وقضّ".، ويعود "الإيتوس" الزيدوني القويّ المزبد المتوعّد الذي لا تعجزه البراهين، ولا تفحمه الحجج، فبعد أن دعا منافسه إلى فتل حبل المودّة الذي انتقض، حذّره من مغبّة الإصرار على الباطل، ومطاولة عنان السماء، وإلّا أقبلت عليه جيوش العتاب بكبيرها وصغيرها، فتداهمه وتهلكه، وتمحق سعيه، وتبطل مرامه، فيبوء بالخسران وتصيبه حمّى الهزيمة والخذلان.

وفي قوله:[42]

وَإِنَّ يَدَ البَينِ مَشكورَةٌ * لِعارٍ أَماطَ وَوَصمٍ رَحَضْ**

ترصّع صدر هذا البيت باستعارة مكنيّة شبّه من خلالها الشاعر "البين" –وهو الخصومة والعداوة- بالكائن الحي الذي حذفه وأشار إليه بلازم من لوازمه "يد". ويستخدم الشاعر في هذا البيت أسلوب التوكيد عن طريق الحرف "إنّ" الذي يقرّر به حقيقة مسلّمة وقضيّة صادقة، حيث يبيّن لخصمه أنّ جفاء وفراق الحبيب والصديق مهما عزّ وغلا مطلب لا بدّ منه ولا مناص من الاعتصام به إذا ما كانت نتيجة الوصال والقرب المذلّة. فأكرم ببعد مع عزّة، وأتعس بقرب منوط بذلّة. وإنّ هذا البين الذي سيكون بين الشاعر وخصمه مشكور؛ لأنّه سيميط عنه العار، ويغسل عنه أدران المهانة.

ب- التشبيه:

التشبيه مميع مطروق، وسبيل مسلوك عند جمهور الشعراء، فهو في الشعر كالملح في الطعام، لا غنى ولا محيد عنه، والشعراء يتفاوتون في حسن تشبيهاتهم باختلاف مراتبهم وتمكّنهم من صنعة الشعر. ولا شكّ في أنّ التشبيه وسيلة حجاجيّة تستهدف المتلقي؛ لتستثيره وتستميله.

ويسهم التشبيه في ترسيخ المعاني في النفس، وتجلية المعاني، وإبلاغ المقاصد، وهو آلية حجاجيّة لا تطابق بين المستعار منه والمستعار له؛ بل تعقد نوعا من المقارنة بين المشبّه والمشبّه به، وهو يأخذ

بظاهر الاستدلال الذي يؤثّر في المتلقّي، ويسهم في تفخيم لوغوس المُحاجج الذي يهدف إلى كسب التأييد والتعاطف مع قضيّته المبسوطة.

وقد وردت في القصيدة الضادية جملة من التشبيهات الآسرة نذكر منها قول الشاعر:[43]

أَلَم تَنشَ مِن أَدَبِي نَفحَةً * حَسِبتَ بِها المِسكَ طيباً يُقَضْ**

يشبّه الشّاعر في هذا البيت جودة أدبه بالمسك الذي يفض؛ أي يُفتّ ويصبّ. والشاعر في هذا البيت يحاجج خصمه عن طريق فعل الشكّ "حسب" الذي هو أدلّ على اليقين المستبين، ويا له من تشبيه بديع تحقّق فيه الحسن مبنى ومعنى؛ فالمسك في مادته نادر ومطلوب، وفي رائحته زكيّ ومرغوب، والأدب في مادته فنّ جميل، وفي إحسانه المزيّة والرفعة. ويحاجج الشاعر خصمه، ويذكّره بما قاله فيه من قول جميل، وبما حظي به عنده من أدب راقٍ في نفحات طيّبة ينداح عبيرها في الجو ويعبق كالمسك.

وقوله:[44]

أَلَم تَكُ مِن شيمَتي غادِياً * إلى تُرَعٍ ضاحَكَتها فُرَضْ**

في هذا البيت ذهب الشاعر إلى تشبيه الشيم بالترع التي لها فرض، فكأنّ الخصال المحمودة الكريمة في تصريفها ونفاذها تشبه سيلان الماء وجريانه. وتنوّع هذه الشيم من كرم ونجدة وشجاعة وحسن معاشرة تشبه الفرض التي يُستسقى منها ويُطلب البارد العذب عندها. وفي هذا البيت قوّة حجاجيّة كثيفة لاستنادها إلى آليتين حجاجيتين بيانيتين (الاستعارة والتشبيه)؛ فالشاعر يحاجج ابن عبدوس بحجاج حاسم قاصم، ويذكّره بحجم تلكم المنح والعطايا الجزيلة التي أفاضها عليه.

وقوله:[45]

تَظُنُّ الوَفاءَ بِها وَالظُنونُ * فيها تَقولُ عَلى مَن فَرَضْ:**

هِيَ الماءُ يَأبى عَلى قابِضٍ * وَيَمنَعُ زُبدَتَهُ مَن مَخَضْ**

تتجلّى في هذين البيتين شاعريّة ابن زيدون من خلال إحكامه لصنعة الشعر، وتمكنّه من براعة التشبيه، فهو وإن كان في مقام حجاج ومعاتبة ونقض مفتريات؛ إلّا أنّه لم يغفل أن يشحن قصيدته بجمل من الصور البيانية الرائعة. ويستمر الحجاج الزيدوني المطّرد في سلم متسلسل من الحجج التي تخدم القضيّة التي يسعى إليها، كما أن "الإيتوس" الزيدوني هو الآخر يقوى ويربو مع كلّ حجّة، وفي كلّ بيت، ففي هذين البيتين يشبّه ما تراءى لابن عبدوس من سراب الودّ، وما توهّمه باطلا من حبل الوصال بالماء الذي لا يقبض، فإنّ الشخص مهما تحامى ما تحامى لكي يقبضه لن يستطيع؛ لأنّه سينفلت من بين يديه ويختار طبيعة الجريان التي فُطر عليها. كما أنّه لا يعزب عن الأفهام، ولا يغيب عن الأذهان بما تعرفه الطبيعة، وعهدته الخليقة أنّ مخض الماء لا ينتج زبدة وإن كانت الجهود كبيرة،

والمساعي حثيثة. وما حجّة ابن عبدوس في المنافسة بعد ما تبدّى له من سراب وظنّه ماء عذبا إلا تمسّك بباطل ومعاندة للحقّ، واتّباع للوهم، وتدثّر بجلباب الزور.

وقوله:[46]

وَأَنذِرِ خَليلَكَ مِن ماهِرٍ * بِطِبِّ الجُنونِ إذا ما عَرَض**
كَفيلٌ بِبَطِّ خُراجٍ عَسا * جَريءٌ عَلى شَقِّ عِرقٍ نَبَض**
يُبادِرُ بِالكَيِّ قَبلَ الضَمادِ ***وَيُسعِطُ بِالسَمِّ لا بِالحُضَضْ

يظهر في هذه الأبيات "الإيتوس" الزيدوني القويّ إلى حدّ الغرور الواثق من نفسه، فقد بدأها بالأمر المضرّج بدماء التحذير والوعيد، الذي هو آخر مدارج السلم الحجاجي، فبعد تشخيص الأخطاء، والتذكير بحجم الجرم، جاء دور التحذير من المصير المحتوم؛ حيث شبّه مهارته في مقارعة الخصوم، وردّ زورهم وبهتانهم، ومقارعة حججهم، ودحض افتراءاتهم بمهارة الطبيب في مداواة داء الجنون الذي يعرض فيُعجز ذوي الألباب، فهو الكفيل ببطّ القروح اليابسة التي تظهر فيشقّها مما غلظت واشتدّت، وهو الجريء على شقّ العرق النابض. ويبيّن لخصمه أن بصره بالطب ليس كبصر باقي الأطباء فهو لا يقدّم الدواء الشافي، ولا عصارة الصبر، بل يبادر بالكيّ وتجريعه السمّ الرعاف؛ لأنّ المريض ها هنا ليس عليلا يطلب العلاج ليُشفى؛ بل مغرور معتدّ بنفسه، وليس هناك علاج للمغرور خير من قيادته إلى حتفه، وإيراده المهالك حتّى يكون أمثولة لغيره، وعبرة لمن يعتبر.

3/ آليات حجاجيّة من علم البديع:

أ- الطباق:

للطباق في ميزان المحسّنات البديعيّة وزن راجح، وهو كذلك واحد من أهم الآليات الحجاجيّة البديعيّة التي ترصّعت بها ضادية ابن زيدون، وهو يقوم على إيجاد علاقة ظاهرة أو خفيّة بين معنيين متضادين في جملة واحدة مع وجود نوع من التناسب بينهما، وهدفه –شأنه في ذلك شأن الآليات الحجاجية البلاغيّة الأخرى- هو استمالة المتلقي، والتأثير فيه، وإقناعه بصدق وحجيّة القضيّة المبسوطة، حتى يُكسب تأييده، ويُخطف ودّه.

والطباق في القصائد التي تدور في فلك الوفاق قد يكثر ويطّرد، فما بالك بقصيدة قوامها التهديد والتحذير والوعيد من مغبّة التسربل بسربال الشقاق. ومن المواضع التي ورد فيها هذا المحسن البديعي قول الشاعر:[47]

وَما زِلتَ تَبسُطُ مُستَرسِلاً ***إِلَيهِ يَدَ البَغيَ لَمّا انقَبَضْ

في هذا البيت طباق إيجاب بين كلمتي "تبسط، انقبض"، وقد جمع الشاعر بين قضيّتين متضادّتين في بيت واحد ليدلّ على قوّة حجّته، حيث إنّه يبسط الحجّة ليبيّن أنّ يده مقبوضة عن البغي

مبسوطة بالودّ، والوفاء، والإباء، والكرم، في حين يوهّن حجّة خصمه ابن عبدوس الذي لا تنفك يده مبسوطة بالبغي والظلم، مقبوضة عن المكارم زائغة في بحر العداء المتلاطم.

وقوله:[48]

وَهَل وارِدُ الغَمرِ مِن عِدِّهِ ** يُقاسُ بِهِ مُستَشِفُّ البَرَضْ

نجد في هذا البيت طباق إيجاب بين قوله"وارد الغمر"، و"مستشف البرض"، واستخدم الشاعر أسلوب الاستفهام الذي يقرّر به سلامة منطقه، ورجاحة حجّته، وينكر به أن يستوي هذا وذلك، بل إنّهما نقيضان بائنان متشاكسان؛ حيث يبيّن لخصمه أنّه لا مقارنة بينهما، فهو وارد الغمر -وهو الماء الكثير- بينما خصمه هو مستشف البرض؛ أي الماء القليل الذي لا يروي الضمأ. وفي هذا القول حجّة بالغة يُستدلّ بها على أنّ ابن عبدوس قد دخل معركة خاسرة؛ فلن تقوم له قائمة أمام براعة ابن زيدون في الشعر، وتمكنّه من ناصية القول البليغ، وتحكّمه في قوس الحجّة الدامغة.

وقوله:[49]

تَشوبُ وَأَمحَضُ مُستَبقِياً * وَهَيهاتَ مَن شابَ مِمَّن مَحَضْ**

في استمراريّة تدرّج السلميّة الحجاجيّة التي ترجّح كفّة "ابن زيدون" لا تنفك حججه ضاربة ناكئة للجرح الذي فتقه في أوّل القصيدة محافظة على قوّتها؛ إذ وظّف في هذا البيت طباق إيجاب بين "تشوب" "أمحض"،و "شاب" "محض"، والملاحظ أنّ اللفظتين المتطابقتين تكرّرتا مرّه بصيغة الماضي ومرّة بصيغة المضارع؛ لأنّ الشاعر يقدّم الحجّة لخصمه مبيّنا له أنّه طالما كان ماحضا يقدّم له الخالص الذي لا تشوبه شائبة ولا تلوّثه لوثة؛ بينما كان ابن عبدوس ولا ينفك عن الرقود في مراقد الضلال وإتباع مذاهب الغيّ وافتعال الأسباب التي تولّد الخصام والقطيعة.

وقوله:[50]

وَلَولا اختِصاصُكَ لَم أَلتَفِت * لِحالَيكَ مِن صِحَّةٍ أَو مَرَضْ**

في عجز هذا البيت طباق إيجاب بين "صحة" و "مرض"؛ وفي صدره استخدم الشاعر أسلوب الشرط عن طريق الحرف "لولا" وعضده بحرف النفي "لم"، فشحن هذا البيت بقوّة حجاجيّة إقناعيّة؛ حيث يبيّن الشاعر لابن عبدوس ما له عنده من صحبة، ومودّة، فهو من خاصة رفاقه، وصفوة أصحابه، ولولا ذلك ما كان ليصيبه الجذل والحبور في وقت صحته، وما كان ليصيبه شجن وقت حزنه. ولكنّ هذا الاختصاص مهدّد بما اجترحه ابن عبدوس من ذنب، وابتغى من ورائه عدوا وظلما من طلب وصال ولادة.

وقوله:[51]

وَلا عادَني مِن وَفاءٍ سُرورٌ * وَلا نالَني لِجَفاءٍ مَضَضْ**

في هذا البيت مقابلة بين "وفاء"، "جفاء" و "سرور"، "مضض" وظّفها الشاعر؛ ليثبت بها حجّته السابقة ويزيدها جرعة من ترياق الإبداع، ويزيد المتلقي انبهارا بما أوتي من إلماع، وفوق القوّة الحجاجيّة البلاغية عن طريق المقابلة ترصّع البيت بأسلوب النفي أيضا عن طريق الحرف "لا" في موضعين؛ مما أسبغ على اللوغوس الزيدوني قوّة وبيانا في رحلة استدرار تأييد المتلقي واللعب على وتر الباتوس، فلولا ذلك الاختصاص الذي حظي به ابن عبدوس ما كان ليتمخّض عن وفائه السرور، وما كان ليصيب ابن زيدون من جفائه مضض ولا حسرة. ويا لها من حجّة باهرة دامغة يثبتها الواقع، فقد شهد النّاس بما كان بين الرجلين من قرب ومودّة، ولم يكن قبل اليوم من داع للشقاق والتنافر؛ فالشاعر يبرّئ ذمّته من الابتدار بقطع الوشائج وصرم الوصال؛ ليتحمّل ابن عبدوس وحده وزر هذه القطيعة.

وقوله:[52]

عَمَدتَ لِشِعري وَلَم تَتَّئِب * تُعارِضُ جَوهَرَهُ بِالعَرَضْ**

وظّف الشاعر في عجز هذا البيت طباق إيجاب بين كلمتي "جوهره" و "العرض"؛ وكسا البيت أيضا بأسلوب النفي عن طريق الحرف "لم" ليستمر "الإيتوس" الزيدوني في النسق الحجاجي نفسه، وبالقوة الإقناعيّة نفسها، في حسن تسلسل وبراعة ربط، ليفحم ابن عبدوس ويقيّده بسلسة العجز، حيث يتعجّب من جسارة ابن عبدوس في معارضة شعره الفحل الأنيق الذي هو جوهر ثمين ودرّ قيّم وعسجد نفيس بشعر ركيك بليد لا يقاس به ولا يضاهيه. فأنّى له الطاقة البيانيّة والنفس الشعري الطويل، وامتلاك نواصي القوافي، والتمكّن من آليات الحجاج حتى يرمي بسهام الردّ. والظاهر أنّ ابن عبدوس قد عجز أيّما عجز وحصر أيّما حصر عن دحض وردّ ما حُوجج به.

خلاصة:

حفلت القصيدة الضاديّة بحشد وافر من الآليات البلاغيّة الحجاجيّة المتنوّعة التي ترصّعت بها وزادتها حسنًا في شقيّها اللّغوي والدلالي، وأسهمت في خدمّة الغرض الذي رامه الشاعر من ورائها، وهو العتاب والعذل. وقد استطاع ابن زيدون أن يشحن قصيدته بسيل جارف من المعاني التي تتدفّق قوّة، وتتفجّر غضبا. وطعّمها بحججه التي أراد من خلالها أن يستميل القارئ ويجذب المتلقي ليقتنع بصدق قضيّته. وإنْ كان مدار هذه الدرّاسة البحث في القصيدة من خلال بعدها الحجاجي البلاغي فإنّها تبقى مجالا مفتوحا وحقلا خصبا لدراسات أخرى، من جوانب عديدة.

الهوامش والمراجع والمصادر:

1- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري الرويفعي الأفريقى ت 711 ه)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، (د. ت)، 226/2. (مادة حجج).

2- الخليل الفراهيدي (أبو عبد الرحمن بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي ت 170 ه)، معجم العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، (د. ط)، (د. ت)، 10/3. (مادة حج).

3- المرتضى الزَّبيدي (محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق ت 1205 ه)، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: نخبة من العلماء، مطبعة حكومة الكويت، (د. ط)، (د. ت)، 460/5. (مادة حجج).

4- مجمع اللّغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدوليّة، ط4، 1425ه-2004م، ص: 157.

5 -Vois: Mounir Baalbaki Ramzi And Mounir Baalbaki , Al-mawrid Al-hadeeth, A modern English Arabic dictionary , Dar El-llm Lilmalayin, Beirut, Lebanon, p 75.

6- Vois: Longmen: Dictionary of Contemporary English, Longman, 1989, p 56.

7- ينظر: عبد الجليل العشراوي، الحجاج في الخطابة النبوية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012م، ص: 9.

8- ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، ط2، 2007، ص: 8.

*-ذهب الباحث إلى القول إنّ الحجاج أشمل وأوسع من الاستدلال البرهاني الذي هو مجرّد استنتاج قضيّة من أخرى استنتاج لزوم وتوقّف وضرورة؛ لهذا عُدّ في نظرية الحجاج الحديثة نقيضا للحجاج الذي ينطلق من مبدأ الحريّة ويعتمد على الحوار. ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

9- ينظر: حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، بحث منشور ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010، 32/3.

10- ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية، ص: 8.

11- محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الناشر للثقافة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2005، ص6.

12- طه عبد الرحمن، اللّسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998، ص 226.

13- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000 م، ص 65.

14- أبو هلال العسكري (الحَسَن بْن عَبْد الله بْن سهل بْن سَعِيد بْن يحيى بْن مِهْران ت 411-420 هـ)، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1989 م، ص: 39.

15- ينظر: طالب عويد نايف الشمري و حسام قدوري عبد، نظرية الحجاج...الجذور والاستواء، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، بغداد، ص: 14.

* -وجّه الباحث نقدا للقدامى؛ لأنّهم حصروا موطن الإعجاز في الشكل والهيئة وتصاريف الكلام؛ حيث إنه لم يدر بخلدهم أنّ الإعجاز أيضا يتأتّى من الحجج التي بينها، والسياسة المنتهجة في ترتيبها كي تتضافر مع الشكل والهيأة فيبلغ النص من سامعه قصده، فالجلود لا تقشعرّ من خصائص البنية اللغوية فحسب؛ بل تقشعرّ أيضا من إحكام بنية الحجج والقدرة المنقطعة النظير على الإقناع. ينظر: حمادي صمود، من تجليات الخطاب البلاغي، دار قرطاج للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 1999، ص: 108.

16- ينظر: علي محمّد علي سليمان، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، رسائله أنموذجا، ص: 50.

17- صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، الإصدار الأول، 2008، ص: 15-16.

18- ينظر: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، ص: 28.

19- ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج –الخطابة الجديدة" لبيرلمان وتيكيتاه، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، د ط، د ت، ص: 298.

20- ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية، ص: 8.

21 -ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط 15، ماي 2002 م، ج1، ص: 158.

22 -ينظر: ابن خلكّان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ت 681 هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د. ط)، 1398 هـ-1978 م)، ج1، ص: 140.

23 -ينظر: ابن زيدون (أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب ابن زيدون المخزومي الأندلسي ت 463 هـ)، الديوان، شرح: يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، ط2، 1415هـ-1994م، ص: 14-15.

24- الديوان، ص: 147.

25 - الديوان، ص: 147.
26 - الديوان، ص: 148.
27 - الديوان، ص: 148.
28 - الديوان، ص: 148-149.
29 - الديوان، ص: 147.
30- الديوان، ص: 148.
31 - الديوان، ص: 148.
32- الديوان، ص: 149
33- الديوان، ص: 149.
34 - الديوان، ص: 149.
35 - الديوان، ص: 149.
36 - الديوان، ص: 150.
37 - الديوان، ص: 147.
38- الديوان، ص: 149.
39 - الديوان، ص: 149.
40 - الديوان، ص: 150.
41- الديوان، ص: 150.
42- الديوان، ص: 150.
43 - الديوان، ص: 149.
44- الديوان، ص: 149.
45- الديوان، ص: 149.
46- الديوان، ص: 150.
47 - الديوان، ص: 147.
48 - الديوان، ص: 147.
49 - الديوان، ص: 148.
50 - الديوان، ص: 149.
51 - الديوان، ص: 148.
52- الديوان، ص: 148.